والشــؤون الاسلاميــة المغربيــة بدعوة ثلة من علماء الشريعة واقطاب الفكر من الخليج الى المحيط لالقـاء محاضرات والاسهام فى ندوات وتجمعات ترصص وحدة الفكر الاسلامي وتستخلص دروس نهضتنا الجديـدة من دستور القرءان وانبثقت بوادر أخرى **عـن سمـو امير دولة الكويت ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الكويتية** التي قررتاحياء التراث الاسلامي ونشر كل ما يتعلق بعلوم القرءان مما تحويـه خزائن العالـم من مخطوطات نادرة ، وحفلت الصحافة والاذاعة والتلفزة بالبحوث والدراسـات الاسلاميـة كللـت فى المغـرب (**بالمصحف الحسني**) الذي كان تحفة فنية رائعـة وزعت على مختلف الهيئـات الدينيـة والجامعـات والكليات والجوامع فى الشرق والغرب كعنوان للرباط الوثيق الذي يصل المسلمين فى جميع انحاء العالم .

ولم يفت **وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة المغربيـة** ان تشارك مشاركة فعالـة فى احياء هـذه الذكرى وابراز معالمها الوضاءة فى طابـع مقـدس ، فاشرفت على ندوات علمية خاصـة نوقشـت فيهـا اوضاع العالم الاسلامي الحاضرة ومكانة الدراسـات الاسلامية فى مختلف الجامعات ومراكز الاستشراق ، كما تشكلت لجان علمية لإعادة تنظيم مناهج التعليـم الديني والقرءاني فى المدارس والمعاهد ووضع معاجـم قرءانية واعداد موسوعة عن علوم القرءان وتطور لغة القرءان معززة بدراسات موازية لمصادر السنة وشروح مواتية لتطورات العصر على ضوء هدى القرءان ، وكان **جامع الازهر** الشريف بالقاهرة كنظيريه **جامع القرويين** بفاس **وجامع الزيتونة** بتونس مسرحا لاشعاعـات ربطت الحاضر بالماضي وانارت سبل الهدى مستنيرة بهدي القرءان .

عبقرية الفكر العربي وشموله يحدوان إلى خط نهج جديد في تدوين تاريخ الأدب العربي

للأستاذ بهجة الأثري
عضو المجمع العلمي العربي ـ بغداد

لما بدا (العرب) التدوين في القرن الاول للهجرة، جروا فيما دونوا من شيء مع الفطرة بعيدين من التكلف والتعمل والتعقيد ، وعنوا في كتابة ادبهم باثبات الرواية ـ وهي مصدره الاول الاصيل ـ في أمانة بالغة .. تزمتوا فيها تزمتا شديدا ، التزاما للصدق ، وتقديرا لما في اعناقهم من هذه الامانة وما يجب عليهم من أدائها سالمة الى الاجيال .

ذلك شأن تفردوا به بين الامم قاطبة ، ولم يرو لنا التاريخ ضريبا لهم فيه .

وتحت سلطان هذه النزعة الامينة الصادقة المتشبثة ، على نفوسهم واقلامهم ، حرروا نصوص الروايات والآثار ، معارضة وضبطا وتفسيرا ؛ ثم حفلوا بأخبار من صدرت عنهم هذه النصوص والآثار، من شعراء وأدباء ، فدونوها في ايجاز تارة واطناب تارة ، ونقصوا السير ، واحصوا ما انتج في كل فن من فنون الادب وكل لون من الوان الثقافات .. سالكين في ذلك مسالك مختلفة وان تقاربت في الغايات ، على ما هو مشاهد محس فيما خلفوا من تراث زاخر عظيم على توالي العصور ، وما برح الخلف يتابع السلف على نهجه ، والجيل يقفو اثر الجيل ، ويتوفر على تدوين الآثار القيمة مما يجد من ادب وعلم ، في ازمانه واقاليمه ، ما دنا منها وما بعد ، على قدر ما يتسع له الذرع ، ويتوافر من مادة التأليف ؛ وما فاتهم حين استبحروا في الحضارة والعمران ، واتسعت معارفهم ، أن يستجدوا الطريف الممتع الخصب من مذاهب النقد وطرائق الموازنة ، فيلونوا بها التأليف بالوان جديدة .. تكسبه القوة ، وتخلع عليه غلائل الجدة ومطارف الحسن والرواء .

وهكذا كان تدوينهم نتاج الافكار والعقول والضمائر ، تدوينا طبيعيا حرا ، طليقا من القيود الثقال ، تسجيلا ووصفا واحصاء ونقدا وموازنة، لم يخرجوا به في معظم أحواله عن الفطرة والطبع ، ولم يفلسفوه ، ولم يربطوا تاريخه بالاحداث ، وانما تركوا لمن شاء أن يفهم مما يقع له من آثاره ما يشاء ، وان يستنبط منها ما يستطيعه بالقدر الذي يسمو اليه ادراكه ، أو تحاوله ارادته ، فيقف عندما استنبط راضيا به أو ساخطا عليه ، أو يتجاوزه فيستزيد منه ويسعى وراءه في الآفاق القاصية من محيطاته وعبه العميقة أبلغ العمق ، والواسعة سعة ينقلب عنها البصر خاسئا وهو حسير . ذلك بان امتداد تاريخهم واختلاف تقلباته ، وانبساط رقعة الاوطان التي انتشروا على اديمها ما بين المشرق والمغرب ، وقد تنوعت طبائعها وامزجتها ، وتباينت فيها وجوه المؤثرات ، ثم كثرة ما انتجوا في الحقب الطوال من ولائد الافكار ، وتعدد صوره ، وتنوع الوانه : كل هذا وغير هذا ، لم يأذن بتدوين ادبهم على غير هذا المنحى الذي ذكرت . وهو اذا أذن به استدعى طاقات قوية قوة خارقة : تعين على تقصي آثاره ، واستحضار

مضامين هذه الآثار ، وما اختلف منها وما تشابه ، وتنسق ذلك كله تنسيقا علميا ، وتدرسه دراسة جماعية ، متأملة مستأنية ، نقاشا وتحقيقا يخلصان بها الى نتائج تصدق على هذا الادب فى جملته وتفصيله ؛ ولم يتوافر شيء من هذا ، ولا أحسبه سيتوافر بعد زمن طويل أيضا ، فليس حدوث مثله بالطلب السهل الميسور . وهذا باب واسع ينفذ منه الى آفاق بعيدة ، وليس يعنيني منه ها هنا غير اللمحة الدالة مما يقال فيه .

ولما كان هذا العصر الحديث ، وحدث الاتصال فيه بأوربة ، وجدت آداب الفرنجة مدونة ومؤرخة بأسلوب مغاير لهذا الاسلوب العربي . وهو فى جملته منطق بنطاق التاريخ السياسي عندهم ، وموصول به ، ومقسوم الى عصور متميزة ، جعلت لكل عصر منها معالم من الاحداث الكبرى تفصل بينها ، ووصل فيها أفق الفكر وانتاجه بأفق السياسة والاجتماع والاقتصاد ، قصدا الى تبين المؤثرات فى الآثار ، وتعرف الظلال والالوان التي تتخالف فيها من عصر الى عصر تبعا لذلك .

ولقد ذهب بريق هذا المذهب فى تدوين تاريخ الادب بأبصار كتاب العرب المحدثين منذ أول الاتصال بأوربا ، وبفرنسا خاصة ، كما يكون الشأن عادة عند الالتقاء بشيء جديد ، فبادروا الى اصطناعه قبل أن يفحصوه ، ويتمعقوا فى درسه ، ويلاحظوا الفرق بين طبيعة أدب أمة وأخرى ، ويتدبروا القياس كما ينبغي أن يكون التدبر لقانون ما يراد تطبيقه ، وجروا وراءه سراعا مهطعين ، ينقلون أقلامهم على آثار ما رسمه الاوربيون ، فيما حاكوهم به من كتابة موجزات فى تاريخ الادب العربي ، غالبها تعليمي ، او مفصلات غلبت عليها طبيعة الفهرسة وقلت حظوظها من التقصي والغوص الى الاعماق ، ولم يكتبوا فيه في حقيقة الامر — الا بقدر ما يحسو العصفور بمنقاره من نغب من البحر المحيط . وقسموا الادب العربي فيما كتبوا من ذلك وفاقا لهذه الطريقة الاوربية الى عصور تاريخية ؛ اخضعوا جملة انتاج العقل العربي فيها لعوامل السياسة خاصة ، ظانين — وظننت ظنهم فى مطلع الشباب — ان هذا المذهب يصلح أن يكون فى جملته وتفصيله مذهبا عاما ، ويحسن تطبيقه على الادب العربي وتدوين تاريخه كما يدون التاريخ العام ، تدوينا يجسد اطواره من عصر الى عصر ، ويعطي من الاحكام الجامعة والنتائج المرضية معطيات قيمة تطابق الحقيقة والواقع من أمره !

ولا ريب عندي فى أن هذا المذهب فى حد نفسه — بقطع النظر عن امكان الانتفاع بتطبيقه فى كتابة تاريخنا الادبي ، بأبعاده وأغواره وازمانه — هو مذهب موفور الحظ من مسحة التفكير والتنظيم ، وعليه طابع الاصالة المنهجية التي تحدث فى البحث اشياء من جمال التبويب والتنسيق ، وتجمع النظائر والاشباه، وتوضح الاقدار المشتركة بينها توضيحا ما ، لا شك فى غنائه وجدواه عند ارادة ادراك علاقة الآثار بالمؤثرات ، فيما يمكن حصره والسيطرة على أبعاده من شيء ، وحين تتسنى الاحاطة التامة بوسائله ، وتتيسر القدرة التي تستطيع الغوص والاستنباط والخلق .

ثم هو مذهب توائم طبيعتهطبيعة الآداب الاوربية عامة ، بوحداتها المتعددة والصغيرة ، وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالا سياسيا وتاريخيا ، وانفصالا لغويا وأدبيا من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة ، وأدبها الخاص ضمن حدودها الضيقة ، ونحو ذلك من اشياء يسهل معها تشخيص السمات وتبين المميزات .

ولكن هل كان الادب العربي فى مناشئه وطبيعته كذلك ؟ ومتى ؟ وانى ؟ فنخضع تدوين تاريخه العام لهذا المذهب على هذا النحو بحيث نبلغ به النتائج الصحيحة التي تصدق عليه ؟ جواب هذا التساؤل عندي ، ولست اتعجل به من غير تدبر : « لا » مشحونة بكل دلالة نفيها القاطع ، متمثلا فى حرفيها المستعليين الشامخين !

فلا ريب أن الادب العربي يتميز بخاصتين عظيمتين ، باين بهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها ايضا ، فامتنع بهذه المباينة — فيما أرى — اخضاعه اخضاعا تاما لما اخضعت له من قانون دونت به تواريخها الادبية العامة .

اما احداهما ، فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من أوطان ترامت ما بين بلاد الفال فى الغرب وتخوم الصين فى الشرق ، وبين حواشي السفور شمالا واليمن وحضرموت جنوبا ، وما حظي به من مشاركة عبقريات من مختلف الشعوب فى بنائه ، وما استوى بذلك لآفاقه من ابعاد واغوار ، وما زخر فيه من آثار متنوعة اذا استطاع الاحصاء لشيء ما أن يحيط بافراده حصرا ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها فى حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة .

واما الاخرى ، فتلك هي طبيعته الخاصة ، ومناشئه ، وينابيعه التي تشق مجاريها الدافقة طرقها فيه الى « لا نهايتها » ، وترفده دائما بما يمنحه استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود امام الاعاصير ، بل القدرة على التأثير في مجاري أحداث الحياة نفسها ، فيفرض عليها سلطانه كما سنرى فيما يأتي من حديث .

ونحن اذا تدبرنا هذا كله بازاء هذا الاسلوب الاوربي في تدوين تاريخ الادب مقسما الى عصور سياسية .. اتضحت لنا صورة الصعوبة في تطبيقه على ادبنا ان لم نقل بتعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنا هذه المعالم الفاصلة بين ادب عصر وآخر ، في ضعفها ، اشبه بالحدود والحواجز التي اقامتها دول الاستعمار في الوطن العربي ، واتخذت منها « مناطق نفوذ » لها، تتحكم في مواردها ومصادرها ومصايرها على نحو ما تشاء . ولكن هذه الحدود والحواجز ، كانت امام مور الامة العربية اضعف من ان تثبت له او تحول دون الاماني القومية ان تتلاقى على هدى من امرها العظيم .

كذلك كان شأن هذه التقاسيم السياسية في تحديد طبيعة الادب العربي ، فانها حين فرضت عليه، عجزت ـ من هذا المنطلق المقيد ـ عن الوفاء بتمثيل الصور الصحيحة لابعاده واغواره في مختلف بيئاته وعهود تاريخه .

ونحن حين نمضي في ملاحظة الاحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدها تجري ابدا متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم اجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كل حادث منها ينشأ وهو منفعل باسباب وعلل تتقدمه متصلة بحادث سابق ، فما يكون في يومنا من حادث جديد ، فلأحداث الامس الدابر اثر في حدوثه ، وله بها اتصال وثيق مباشر ؛ وان بدا للنظرة القاصرة قائما بنفسه ، وما يكون من احداث في غد آت انما هو مرتبط باحداث يومنا كذلك ، وهكذا الشأن كله في أحداث الحياة ؛ تدور في هذه الحلقة المفرغة دوران الافلاك في مساراتها .

ثم نمضي في ملاحظة تولد الافكار ؛ فنجد الفكر الانساني ـ اي فكر كان ومتى واين وكيف ـ لا ينبع من الاذهان ابتداء ، وانما ينبع من أفكار تقدمته وولدته ، وان خرج احيانا مباينا لها في الصورة والشكل ، او بدا منفصما عنها في النزعة والمعنى والغاية . وهو كما يكون مؤثرا فيما يحدث بعده من افكار ، يخضع لعوامل شتى سبق زمن وجودها زمن ظهوره ومنها تولد من بعد وتركب في صورة من الصور. وعلى هذا النحو تتلاحق أجزاء السلسلة الزمنية متماسكة ، وتتلاحق كذلك الافكار آخذا بعضها برقاب بعض ، وتتتابع ، ويتولد فكر من فكر ، وتنتقل مؤثرات عصر سابق الى عصر لاحق ، فتظهر اثرها في حياته العامة وفي جملة افكاره وآدابه . على هذا قام قانون الوجود ، واطردت سننه منذ ازله ، وسيطرد على ذلك كذلك الى ابده ، فما ثم من شيء فيه الا يولد من شيء سابق له ، ثم ينمو رويدا حتى يبلغ نضجه في الوقت المقدر له ، فيظهر فيه سويا بحسب الساذج حصاده ابن يومه كما يتوهمه عند ظاهر عيانه ، ولا يكاد يذكر اوائله ومناشئه في زمن سبق ونبت فيه من بذاره .

ثم ، هذه الاحداث السياسية التي تحدث في زمن ما ، انما تحدث آثارها الحقيقية في الحياة عامة ، وفي المعاني الانسانية خاصة ، بله الصور والاشكال ، في اناة وبطء ، فلا يظهر منها ما يظهر الا بعد ريث من الزمن يمضي على لقاحها ، كما يكون من شأن المواليد .

وهي ـ بعد ـ احداث متغايرة ، تعتري الحياة ، فتحدث لذلك آثارا متغايرة ، تتشابك فيها المؤثرات ، فيتعذر تبين عناصر كل حدث منها على انفراده ، وتعرف مدى عمله في خلق تلك الآثار .

واذا كان الامر كله كذلك في جملة شأنه ، ولست احسبه يكون غير ذلك ، فلا جرم يكون مؤدى هذه التقاسيم للعصور السياسية ـ حين نفرضها على الادب العربي ـ اننا ندخل بها عليه فسادا ـ واي فساد ـ ما في ذلك ريب ، اذ نضيف الى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل في نفسه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه ؛ ونحن ـ الى هذا ـ لا نملك الوسيلة الى تحليل عناصر كل حدث نتخيل له تأثيرا في الصور والمعاني ، والى تشريحها لادراك عملها في الآثار الادبية ، وتمثيلها في شكل ما من الاشكال ، يصف حكما عاما صحيحا يصدق عليها ولا يفيل ، فنجور بالاول على الاشياء ، ونفتئت على الحقائق ، ولا ينتهي بنا الثاني الى فائدة مستخلصة توضح ما نحاول تبينه من السمات الصحيحة من خلال ركام الاحداث .

واذا نحن وسعنا الافق ، ومددنا ابصارنا الى خط ابعد واعمق ، وفحصنا طبيعة تغليب العوامل السياسية في هذه التقاسيم ، واعطائها صفة السلطان المطلق او شبه المطلق الذي يتحكم في مصاير الاشياء ،